الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّام
حَوَارِيُّ رَسُولِ اللهِ

لا يجيء ذكر «طلحة»، إلا ويُذكر الزبير معه..

ولا يجيء ذكر «الزبير» إلا ويذكر طلحة معه..

فحين كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُؤَاخى بين أصحابه فى مكة قبل الهجرة، آخى بين «طلحة» و «الزبير».

وطالما كان عليه السلام يتحدث عنهما معًا.. مثل قوله:

«طلحة والزبير، جَارَايَ فى الجنة».

وكلاهما، يجتمع مع الرسول فى القرابة والنسب.

أما طلحة، فيجتمع نسبه مع الرسول فى «مُرة بن كعب».

وأما الزبير، فيلتقى نسبه مع الرسول فى «قُصَىّ بن كلاب» كما أن أمه «صفية» عمة رسول الله..

وكل منهما - طلحة والزبير - كان أكثر الناس شَبهًا بالآخر فى مقادير الحياة..

فالتماثل بينهما كبير - فى النشأة.. فى الثراء... فى السخاء.. فى قوة الدين.. فى روعة الشجاعة.. وكلاهما من المسلمين المبَكرين بإسلامهم.. ومن العشرة الذين بشَّرهم الرسول بالجنة. ومن أصحاب الشورى الستة الذين وكل «عمر» إليهم أمر اختيار الخليفة من بعده.

حتى مصيرهما كان كامل التماثل.. بل كان مصيرًا واحدًا.

* * *

ولقد أسلم الزبير - كما قلنا إسلامًا مُبكرًا.. إذ كان واحدًا من السبعة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام، وأسْهمُوا مع طليعته المباركة فى دار الأرقم..

وكان عمره يومئذ خمس عشرة سنة.. وهكذا رزق الهُدى والنور والخير صَبيًّا..

ولقد كان فارسًا ومقدامًا منذ صِباه. حتى إن المؤرخين

ليذكرون أن أوَّل سيف شُهر فى الإسلام كان سيف «الزُّبَير».

ففى الأيام الأولى للإسلام، والمسلمون يومئذ قِلَّة يستخْفُون فى دار الأرقم.. سرت إشاعة ذات يوم أن الرسول قُتِلَ.. فما كان من الزبير إلا أن استلَّ سيفه وامتشقَه، وسار فى شوارع مكة - على حداثة سنه - كالإعصار..!!

ذهب أولا، يتبيَّن الخبر، معتزمًا إن هو ألْفاه صحيحًا أن يُعمل سيفه فى رقاب قريش كلها حتى يظفر بهم أو يظفروا به..

وفى أعلى مكة لقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله ماذا به..؟؟ فأنْهى إليه «الزبير» النبأ.. فصلّى عليه الرسول، ودعا له بالخير. ولسيفه بالغلَب.

وعلى الرغم من شرف «الزبير» فى قومه فقد حمل حظه من اضطهاد قريش وعذابها.

وكان الذى تولّى تعذيبه عَمه.. كان يلفُّه فى حصير، ويدخن عليه بالنار كى تزهق أنفاسه، وينادیه وهو تحت وطأة العذاب: «اكفر برب محمد، أدرأ عنك هذا العذاب».

فيجيبه «الزبير» الذى لم يكن يوم ذاك أكثر من فتى ناشئ ، غضِّ العظام.. يجيب عمَّه فى تحدٍّ رهيب:

«لا...

والله، لا أعود للكفر أبدًا»...

ويهاجر «الزبير» إلى الحبشة، الهجرتين - الأولى والثانية، ثم يعود؛ ليشهد المشاهد كلها مع رسول الله. لا تفتقده غزوة ولا معركة.

وما أكثر الطعنات التى تلقَّاها جسده واحتفظ بها بعد اندمال جراحاتها، أوسمة تحكى بطولة «الزبير» وأمجادَه..!!

ولْنُصغ لواحد من أصحابه رأى تلك الأوسمة التى تزدحم على جسده، يحدثنا عنها فيقول:

«صحبت الزبير بن العوام فى بعض أسفاره ورأيت جسده، فرأيته مُجَذعًا بالسيوف، وإن فى صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمى.

فقلت له: والله لقد شهدت بجسمك ما لم أرَه بأحد قط.

فقال لى: أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله وفى سبيل الله»..

وفى غزوة أُحد بعد أن انقلب جيش قريش راجعًا إلى مكة،

ندبه الرسول هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته حتى يروا أن بالمسلمين قوة فلا يفكروا فى الرجوع إلى المدينة واستئناف القتال.

وقاد أبو بكر والزبير سبعين من المسلمين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتعقبون جيشًا منتصرًا فإنّ اللَّبَاقة الحربية التى استخدمها الصديق والزبير، جعلت قريشًا تظن أنها أساءت تقدير خسائر المسلمين، وجعلتها تحسب أن هذه الطليعة القوية التى أجاد الزبير مع الصديق إبراز قوتها، ما هى إلا مقدمة لجيش الرسول الذى يبدو أنه قادم ليشن مطاردة رهيبة. فأغَذَّت قريش سيرها، وأسرعَتْ خُطاها إلى مكة..!!

ويوم «اليرموك» كان الزبير جيشًا وحده.. فحين رأى أكثر المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة، صاح هو: «الله أكبر».. واخترق تِلْك الجبال الزاحفة وحده، ضاربًا بسيفه.. ثم قفل راجعًا وسط الصفوف الرهيبة ذاتها، وسيفه يتوهَّج فى يمينه لا يَكْبو. ولا يخْبو..!

وكان - رضى الله عنه - شديد الولَع بالشهادة، عظيم الغرام بالموت فى سبيل الله.

وكان يقول:

«إن طَلحة بن عبيد الله يُسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم ألاَّ نبى بعد محمد..

«وإنى لأسمى بَنِيَّ أسماء الشهداء لعلهم يستشهدون».. !

وهكذا سمَّى ولده - عبد الله بن الزبير - تيمُّنًا بالصحابى الشهيد «عبد الله بن جحش».

وسمَّى ولده - المُنذر - تيمُّنًا بالصحابى الشهيد «المنذر بن عمرو»..

وسمَّى - عُروة - تيمُّنًا بالصحابىِّ الشهيد «عروة بن عمرو»..

وسمَّى - حمزة - تيمُّنًا بالشهيد الجليل «حمزة بن عبد المطلب»..

وسمَّى - جعفرًا - تيمُّنًا بالشهيد الكبير «جعفر بن أبى طالب»..

وسمَّى - مُصعَبًا - تيمُّنًا بالصحابى الشهيد «مُصعب بن عُمير»..

وسمَّى - خالدًا - تيمُّنًا بالصحابى الشهيد «خالد بن سعيد»..

وهكذا، راح يختار لأبنائه أسماء الشهداء، راجيًا أن يكونوا يوم تأتيهم آجالهم من الشهداء..!!

ولقد قيل فى تاريخه:

«إنه ما وَلىَ إمارةً قط، ولا جباية، ولا خراجًا، ولا شيئًا إلا الغزو فى سبيل الله»..

وكانت مزيته كمقاتل، تتمثل فى اعتماده التام على نفسه، وفى ثقته الكاملة بها.

فلو كان يشاركه فى القتال مائة ألف، لرأيته يقاتل وكأنه وحده فى المعركة.. وكأن مسئولية القتال والنصر تقع على كاهله وحده.

وكانت فضيلته كمقاتل، تتمثل فى الثبات، وقوة الأعصاب..

رأى مشهد خاله «حمزة» يوم «أحد» وقد مثَّل المشركون بجثمانه القتيل فى قسوة، فوقف أمامه كالطَّوْد ضاغطاً على أسنانه، وضاغطاً على قبضة سيفه، لا يفكر إلا فى ثأر رهيب

سرعان ما جاء الوحى ينهى الرسول والمسلمين عن مجرد التفكير فيه.. !!

وحين طال حصار «بنى قريظة» دون أن يستسلموا أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم مع على بن أبى طالب، فوقف أمام الحصن المنيع يردد مع على قوله:

«واللّهِ لَنذُوقَنَّ ما ذاق حمزة، أو لَنَفْتحن عليهم حِصنهم»..

ثم ألقيا بنفسيهما وحيدين داخل الحصن..

وبقوة أعصاب مُذهِلَة، أحْكما إنزال الرُّعب فى أفئدة المتحصنين داخله وفتحا للمسلمين أبوابه.. !!

ويوم «حُنَين» أبصر «مالك بن عُوف» زعيم هوازن وقائد جيوش الشرك فى تلك الغزوة.. أبصره بعد هزيمتهم فى «حُنين» واقفًا وسط فيلق من أصحابه، وبقايا جيشه المنهزم، فاقتحم حَشْدهم وحده، وشَتّت شَمْلَهم وحده، وأزاحهم عن المكْمَن الذى كانوا يتربَّصون فيه ببعض زُعماء المسلمين، العائدين من المعركة.. !!

* * *

ولقد كان حظه من حب الرسول وتقديره عظيمًا..

وكان الرسول عليه السلام يُباهى به ويقول:

«إن لكل نبى حواريًّا، وحَوَارِيّى الزبير بن العوام»..

ذلك أنه لم يكن ابن عمته فحسب، ولا زوج «أسماء» بنت أبى بكر ذات النطاقين فحسب، بل كان ذلك الوفى القوى، والشجاع الأبىّ، والجوَاد السَّخىّ، والبائع نفسه وماله لله رب العالمين.

ولقد أجاد حسان بن ثابت وصفه حين قال:

أقـام على عهـد النبى وهـديـه ... حَوارِيُّه والقـول بالفعـل يعدلُ
أقـام عَـلَى منهـاجـه وطـريقـه ... يُـوالى ولىَّ الحق، والحقُّ أعـدلُ
هو الفارس المشهوروالبطل الذى ... يصول، إذا ما كان يوم مُحجَّـل
له من رَسُول الله قُـربَى قَريبـة ... ومن نُصـرة الإسلام مجـد مُؤَثَّل
فكم كـربة ذبَّ الـزُّبير بسيفـه ... عن المصطفى، والله يُعطى ويُجزل

* * *

كان رفيع الخِصال، عظيم الشمائل.. وكانت شجاعته وسخاؤه كفرسَىْ رهان.. !!

فلقد كان يدير تجارة ناجحة، وكان ثراؤه عريضًا، لكنه أنفقـه

فى الإسلام حتى مات مدينًا.. !!

وكان توكله عَلَى الله مُنطَلَق جوده، ومُنطَلَق شجاعته وفدائيته..

حتى وهو يجود بروحه، ويوصى ولده عبد الله بقضاء ديونه قال له:

«إذا أعجزك دَين، فاستعن بمولاى»..

وسأله عبد الله: أىّ مَولى تعنى..؟

فأجابه: «الله.. نعم المولى ونعم النصير»..

يقول عبد الله فيما بعد:

«فوالله ما وقعت فى كُربة من دَينه إلا قلت: يا مَولىَ الزبير اقْض دينه، فيقضيه»..

وفى يوم «الجَمَل» عَلَى النحو الذى ذكرنا فى حديثنا السالف عَنْ «طلحة» كانت نهاية «الزُّبير» ومصيره..

فبعد أن رأى الحق فى نَفض يديه من القتال، تبعه نفرٌ من الذين كانوا يريدون للفتنة دوام الاشتعال، وطعنه القاتل الغادر وهو بين يدى ربه يُصلى..

وذهب القاتل إلى «الإمام عَلىّ» يظن أنه يحمل إليه بُشرى حين يُسمعه نبأ عُدوانه عَلَى الزبير، وحين يضع بين يديه سيفه الذى استلَبه منه، بعد اقتراف جريمته..

لكن عليا صاح حين علم أن بالباب قاتل الزبـير يستأذن، صاح آمرًا بطرده قائلا:

«بَشّر قاتل ابن صفيّة بالنار»..

وحين أدْخلوا عليه سيف الزبير، قبله الإمـام وأمعن فى البكاء وهو يقول:

«سَيْفٌ طالما واللّهِ جلَا به صـاحِبُه الكـرب عن رَسُول الله»..!!

* * *

أهناك تحيَّة نوجهها للزبير فى ختام حديثنا عنه، أجمل وأجـزلَ من كلمات الإمام..؟؟

سلامٌ عَلَى الزبير فى مماتِه بعد محياه..

سلامٌ، ثم سلامٌ، عَلَى حَوارىّ رَسُول الله..